المحاضرة:11

« الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين »
لابن الأنبـــاري (513هـ ـ 577هـ) .

أولا: التعريف بالكاتب:

هو أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء الأنباري، المولود بالأنبار سنة 513هـ. غادر هذه الأخيرة وهو صبيّ إلى بغداد. درس العلوم اللغوية والنحوية والدينية على علماء عصره، حيث قرأ الفقه على سعيد الرزاز (ت539هـ)، والأدب على أبي منصور الجواليقي (ت539هـ)،وقرأ النحو على ابن الشجري(ت542هـ)، وسمع بالأنبار من أبيه، وببغداد من عبد الوهاب الأنماطي (ت538هـ).تلقّى اللغة والنّحو والأدب في المدرسة النظامية، فتبحّر في هذه العلوم وصار بعدها مدرّسا فيها، حيث درّس مصنّفات من سبقه . انقطع في آخر عمره في بيته مشتغلاً بالعلم والعبادة، وترك الدنيا ومجالسة أهلها يتردّد عليه طلاب العلم. توفي سنة 577هـ ببغداد[1].

عاش ابن الأنباري في القرن السادس الهجري، وهو عصر ازدهرت فيه العلوم ونشطت فيه الحياة العلمية وحركة التأليف والتعليم، وانتشرت المدارس، وظهر فيه مشاهير اللغة والنحو والأدب أمثال الزمخشري (ت538هـ)،وأبي البقاء العكبري (ت616هـ) وغيرهما. فكان أثره واضحا على ابن الأنباري الذي ألمّ بمعظم الفنون العربية واتّسعت ثقافته[2]. جمع ابن الأنباري بين العلوم المختلفة والعبادة والأخلاق والزهد والصلاح .

شارفت مؤلّفات ابن الأنباري الثمانين كتابا[3]، منها: الإغراب فِي جدل الْإِعْرَاب، نزهة الألباء فِي طَبَقَات الأدباء، الأضداد، تَارِيخ الأنبار، هِدَايَة الذَّاهِب فِي معرفَة الْمذَاهب، الْوَجِيز فِي التصريف،غَرِيب إِعْرَاب الْقُرْآن، حلية الْعُقُود فِي الْفرق بَين الْمَقْصُور والممدود، زِينَة الْفُضَلَاء فِي الْفرق بَين الضَّاد والظاء، فعلت وأفعلت، قبسة الطَّالِب فِي شرح خطْبَة أدب الْكَاتِب، تَفْسِير غَرِيب المقامات الحريرية، شرح ديوَان المتنبي، الموجز فِي القوافي،

---

[1] . ينظر : ابن خلكان، وفيات الأعيان ، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، 1900 ، 3 / 139.

[2] . ينظر : الإنصاف ، ص3 .

[3] . ينظر : جدل الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو ، تح: سعيد الأفغاني ، ص13 .

الْجَوْهَرَة فِي نسب النَّبِي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم – وَأَصْحَابه الْعشْرَة، نُكت الْمجَالِس فِي الْوَعْظ، أصُول الْفُصُول فِي التصوف[1].

ومنه تظهر كثرة مؤلفاته وتنوّعها الكبير. فقد ألّف في الفقه وأصوله ، والعقيدة والتصوف واللغة والنحو والصرف والأدب والعروض والبلاغة والتاريخ والسير وغيرها. يقول ابن الأثير عنه: " وله تصانيف حسنة في النحو، وكان فقيها صالحا"[2]. ويقول ابن خلكان:" كان من الأئمة المشار إليهم في علم النحو"[3].

ثانيا: التعريف بالكتاب:

1 ـ عنوانه:

الإنصاف هو إِعْطَاءُ الْحَقِّ؛ مِن أَنْصَفَ أي عَدَلَ[4]. فقد نصّب ابن الأنباري نفسه حاكما عادلا في المسائل النحويّة الخلافيّة بين البصريين والكوفيين. وهو عنوان قلّد فيه الفقهاء؛إذ كتُب الخلاف الفقهي التي تحمل هذا العنوان كثيرة من ذلك"الإنصاف في مسائل الخلاف" أبي بكر محمد بن عبد الله المالكي الأندلسي(ت543هـ)،"الإنصاف فيما بين العلماء من الاختلاف"لابن عبد البرّ القرطبي (ت463هـ) وغيرهما.

2 ـ دوافع تأليفه:

يقول في المقدمة:" فإنّ جماعة من الفقهاء المتأدّبين، والأدباء المتفقّهين، المشتغلين عليّ بعلم العربية ، بالمدرسة النِّظامية . عَمَرَ الله بانيها! ورحم الله بانيها! سألوني أنْ ألخّص لهم كتابًا لطيفًا، يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحْوِيِي البصرة والكوفة، على ترتيب المسائل الخلافيْة بين الشافعي وأبي حنيفة؛ ليكون أوّل كتاب. صُنّف في علم العربية على هذا الترتيب، وأُلّف على هذا الأسلوب؛ لأنه ترتيب لم يصنّف عليه

---

[1] . السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيد ، لبنان ، 2 /87 .

[2] . ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1997م ، 457/9 .

[3]. ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، 1900، 3/ 139.

[4] . ينظر: لسان العرب، دار صادر ، بيروت ، ط3 ، 1414هـ ، 9 / 332 .

أحد من السّلف، ولا ألف عليه أحد من الخلف. فتوَخَّيْتُ إجابتهم على وَفْقِ مسألتهم، وتَحَرَّيت إسعافهم لتحقيق طَلِبَتِهم"[1].

3 ـ مقدمته :

استهلّ ابن الأنباري كتابه بمقدّمة قصيرة جدّا؛ بيّن فيها أسباب تأليفه، وأشار إلى أنّه أوّل كتاب صنّف على هذا المنهج، وهذا الأسلوب. كما بيّن بإيجاز منهجه في معالجة موضوعه ، ليدخل بعد هذه المقدّمة في عرْض مسائله .

4 ـ منهجه:

بيّن ابن الأنباري في آخر مقدّمته بإيجاز منهجه العام في معالجة موضوعه ، حيث يقول:" وذكرت من مذهب كلّ فريق ما اعتمد عليه أهل التحقيق،واعتمدت في النصرة على ما أذهبُ إليه من مذهب أهل الكوفة أو البصرة على سبيل الإنصاف ، لا التعصب والإسراف"[2]. وهو منهج واحد، التزم به في كلّ الكتاب، ولم يخرجْ عنه ، وهذا تفصيله:

بعد أنْ يذكر موضوعَ مسألتِه يتّبع أربع مراحل هي:

أ . يقدّم آراء الكوفيين ثمّ البصريين في هذه المسألة .

ب . يبدأ بعرض حجج الكوفيين بوضوح ، ثم يعقبها بحجج البصريين.

ج . يعرض ردودَ كلّ فريق على حجج الفريق الآخر،وأغلب ما يطرد ذلك للبصريين.

د . الحكم على المسألة والجواب عن المذهب الذي لا يراه صوابا، وكان الغالب مذهب الكوفيين. وأحيانا يكتفي بإيراد ردود البصريين على حجج الكوفيين فتكون هذه الردود حكمه هو نفسه في المسألة المعروضة .

وقد تميّز الكتاب . عموما . بالاختصار وعدم الاستطراد وعدم الخروج عن موضوعه، وبسهولة عباراته وألفاظه. كما تميّز بالقالب الجدلي الذي ابتكره ابن الأنباري .

هذا ولم يضع ابن الأنباري لكتابه عناوينَ أبوابٍ نحويّةٍ كعادة النحويين، بل جعل كلّ مسألة من المسائل المعروضة قائمةً بذاتها بمثابة الباب أو الفصل[3].

---

[1] . الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تح: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، ط1، 2003، 7/1 .

[2] . ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، تح: جودة مبروك محمد، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط1، 2002 ، مقدمة المحقق ، ص5 .

[3]. ينظر: ابن الأنباري ، الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق : جودة مبروك محمد ، ص29 .

وهي مسائل تبيّن أهم مواطن الخلاف بين المدرستين وتعطي ملامح الفكر النحوي عندهما، حيث سرد أدلة الفريقين وناقش حججهم وآراءهم، ورجّح ما رآه صوابا اعتمادا على علمه باللغة العربية وتمكّنه من العلوم وإلمامه بالمذهبين.

يعتبر ابن الأنباري المؤسس الأول لعلم للخلاف النحوي وأصوله وجداله، وبلغ الغاية في التفنن بها[1]. يقول محي الدين عبد الحميد: " أنّه من أفضل ما صنّف علماؤنا في فنون العربية"[2]. فقد بيّن أفكار كلّ مذهب ومنهجه ، معتمدا على اطلاعه النحوي الواسع. لذلك راج كتاب (الإنصاف) وكثر الانتفاع به، وشغف الناس بهذا النمط من التأليف[3]. فكان له قيمة كبيرة في التاريخ النحوي العربي ، فقد اعتمد عليه المؤلفون وجعلوه مرجعا أساسا في مؤلفاتهم .

7 ـ مآخذه :

إنّ للكتاب بعض المآخذ ، لكنها لا تقلّل من قيمته، ولا من أثره في تاريخ النحو العربي، منها:

• طابع التعميم في مسائله؛ ذهب الكوفيون إلى... ، ذهب البصريون إلى... إلا أنّ ذلك الرأي قد يكون لبعض النحاة دون غيرهم فلا يمثّل رأي المدرسة برمّتها.

• مناقضته لنفسه أحيانا، من ذلك رفْضه لآراء الكوفة استشهادهم بأبيات مجهولة، لكنه يحتج بالكثير من شواهد البصريين المجهولة، كما احتج بشواهد مجهولة في كتاب سيبويه

• ارتباط تعليلاته بالجانب الجدلي بدل الوقوف على الواقع اللغوي ، وكأنه كان مطالبا بأن يجيء في كل مساءل النحو بالأسباب المنطقية [4].

• عدم إلقاء الضوء على مدرسة بغداد ، وإن كان استشهد بآراء نحاتها مثل أبي على الفارسي وابن السراج ، وإنْ ذكَرَهم يجعلهم بصراحة اللفظ ضمْن نحاة البصرة .

---

[1] . ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق : جودة مبروك ، مقدمة المحقق ، ص5 .

[2] . الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق : محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، ط 1، 2003 ، 1 / 5 .

[3] . ينظر: جدل الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو ، تح: سعيد الأفغاني ، ص8 .

[4] . ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف ، تحقيق : جودة مبروك ، مقدمة المحقق ، ص38 وما بعدها .

5 ـ مضمونه:

موضوع الكتاب نحوي، تعرّض فيه صاحبه إلى أشهر المسائل الخلافيّة النحوية بين مدرستي البصرة والكوفة، وعددها إحدى وعشرون ومئة (121) مسألة. عنوانُ أوّلِ مسألة هو (الأصل في اشتقاق الأسماء)، وآخر مسألة عنوانها (وزن أشياء). وهي مسائل تعطي ملامح الفكر النحوي عند الفريقين، حيث سرد آراء وأدلة كلّ فريق وناقش حججهم وآراءهم وبسطها بسطا شافيا، ورجّح آراء البصريين في جلّ المسائل الخلافية،وأيّد الكوفيين في سبع مسائل فقط . وفي ردّه على الآراء التي لا تتفق مع منطقه النحوي استعمل عبارات مثل: فاسد ، باطل ...

أما شواهده فقد كانت متنوّعة؛ أكثرها الشعر العربي. وكان يكرّر الشّاهد في مواضع متفرّقة من الكتاب في المسألة الواحدة، أو في المسائل المتفرقة ، ثم يأتي القرآن الكريم. كما استعان كثيرا بالنثر في الاستدلال في العديد من المسائل ، وعدد قليل من الحديث النبوي الشريف.

6 ـ قيمة الكتاب:

تتجلى قيمة الكتاب في كونه جامعا لأشهر مسائل الخلاف النحوية التي كانت مبعثرة ، كما كانت متعلقات المسألة الواحدة مشتّتة في كتب البصريين والكوفيين . وما أُلّف في الخلاف من كتب كانت ردودا جزئيّة . وبعد كتاب (الإنصاف) صار لهذا الفن كتاب مسجل يسعف الدارسين لأول مرة بما يريدون[1].

إلى جانب عرضه لجانب مهمّ من الآراء النحويّة لنحاة البصرة والكوفة، ولبعض من نحاة المدرسة البغدادية مثل ابن السراج وأبي علي الفارسي وغيرهما، ممّن كانوا أميل إلى المذهب البصري، وإيراده لقسط من شواهد شعرية ليست في كتب النحو الأخرى، واهتمام بالمصطلح النحوي عند المدرستين[2]. فمنْ حسُن حظّ المدرستين أن يتحدّث عنهما ابن الأنباري ؛ لأنه امتلك المذهبين امتلاكا[3].

---

[1]. ينظر: جدل الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو ، تح : سعيد الأفغاني ، ص20 .

[2] . ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف ، تح : محي الدين عبد الحميد ، مقدمة المحقق ، ص4 .

[3] . الإنصاف في مسائل الخلاف ، تحقيق : جودة مبروك محمد ، ص4 .